المصطلح السردي في النقد المغاربي الحديث دراسة في المصطلح السردي لدى سعيد يقطين

أحلام بن الشيخ
جامعة ورقلة (الجزائر)

تقديم:

أفاد الدرس النقدي في مجال السرديات خلال العقود المتأخرة من المحاولات الجادة لعـــديد النقاد والباحثين المتخصصين في هذا المجال ، مما جعل الساحة النـــقدية المغاربية لا تكـــاد تفرغ من سجالات نقدية ما حتى تهرع إلى ما هو أقوى وأنفع تنظيرا و تطبيقا في الدراسات الروائية و القصصية، على غرار جهود كل من :سعيد بنكراد، حميد لحمداني، عبد الله المدغري العلوي، عبد الفتاح كليطو، عبد المالك مرتاض، سعيد يقطين...وغيرها من الأسماء الجادة التي و إن اختلفت في طريقة تعاملها مع المصطلح إلا أنها كيفت إفادتها من الدرس السردي بما يتلاءم و السردية العربية الحديثة، و نشطت في مجال دراستها نشاطا كبيرا .

بنيت الدراسات السردية في بادئ عهدها على أساس حركة النقل أو الترجمة الكثيفـــة التـــي شهدها الدرس النقدي العربي، فتوالت بل و تزامنت أزمات التعامل مع المصطلح تزامن أزمة تلقيه المنهجي لكن مساع كثيرة و حثيثة جاءت بعد ذلك ووجهت هذه الأزمة حيث راحت تبحـــث فـــي الحلول المناسبة لها من خلال التدرج السليم مع تاريخية المصطلح و تطور النظرة إليه في الدرس السردي، و مقصدية التأطير المنهجي الذي فرض بعض الاختلاف بين النقاد في التعامـــل معـــه . وعلى الرغم من الاختلاف الذي شهدناه في التعامل مع الدرس السردي الغربي و طـــرق ربطـــه بالسردية العربية ظل المشهد يسجل توسعا في أفق السرديات و في تحليل الخطاب الروائـــي. وإذا ما أردنا لهذه المعاينة أن تمضي في سبيلها السليم فإننا نعتزم تتبع تجربة الناقد المغربي البارز سعيد يقطين للكشف عن طريقته في التعامل مع المصطلح السردي خاصة وأنه أفاد السردية العربيـــة و مجال البحث فيها إفادة كبيرة من خلال تخصصه في علم السرد تنظيرا وتطبيقا، إن لم نقل ســـعيا كذلك في محاولة جادة للتأصيل لنظرية السرد العربي التي لم نجد انبراء ولا جدالا حولهـــا بمثـــل مانواجهه اليوم في المشهد النقدي العربي.

التعامل التاريخي مع المصطلح و توظيف المنهج:

يرى عبد الفتاح الجحمري أن تجربة سعيد يقطين في تصـــورّه لتحليـــل الخطـــاب الروائـــي ذات منطلقات متكاملة على مستوى تحديد المقدمات وتدقيق الخلاصات . ويؤكد هذا الكلام انطلاق سعيد

يقطين من المستوى التنظيري التحليلي في التعامل مع المصطلح السردي استغلالا للمظهر البنيوي التكويني، الذي ينطلق أيضا من فرضية تقول أن العمل الأدبي عند اكتماله المفترض يظل حصيلة عملية تكوّنه ،و لكن لابد من ترك أثر فهذه الآثار هي التي تكرس النقد التكويني نفسه[1]،ويعزز هذه الفكرة رأي لوسيان غولدمان في أن البنيوية التكوينية تسعى إلى تقطيع الموضوع محل الدراسة ليكتشف الباحث البنية التي تكاد تشمل كلية النص ولا يضيف على النص شيئا من عنده[2]. وانطلق من خلال فكر الشكلانيين الروس في بحثهم وتمييزهم بين (المتن) الحكائي و (المبنى) الحكائي، ثم خاض في النقاش المتعلق بالقصة و الخطاب مستعرضا جهود و أراء كل من "توماشوفسكي ، تودوروف، رولان بارث،روجر فولر،ليتش و شورت، جيرار جينيت"[3]، وقدم لهذا الأخير تحديده لسردية الخطاب الحكائي من خلال معايير هي :

1- الصيغة\ السرد.

2- الزمن\استيعاب الحكي.

3- قصدية الكاتب \ قصدية القارئ \ الميثاق بينهما.

وظهرت هذه المنطلقات جميعا من خلال كتابه **القراءة و التجريب**(1985).

بعد استغلاله لهذا المنهج وتفعيله لأدواته لتحقيق الغايات في تتبع المصطلح تتبعا علميا وتاريخيا سليما وفق رؤية منظري الشكلانية وواضعي هذه المصطلحات، استعرض مسألة الزمن في الخطاب الروائي مستغلا المنهج ذاته، وأشار إلى إشكالية الزمن في الرواية العربية، ومصطلحي الصيغة والرؤية. ومزج في دراسته هذه والتي تعد متكاملة بين النظرية والتطبيق، فقام بتسليط المقاربات المنهجية المتاحة على أربعة نصوص هي: رواية الزيني بركات لجمال الغيطان، الوقائع الغربية لإميل حبيبي، أنت مذ اليوم لتيسير سبول والزمن الموحش لحيدر حيدر. وهو بهذا العمل قد صادق على أهدافه الواردة في مقدمة الكتاب حيث قال: " تروم هذه الدراسة أن تكون جديدة على مستويين، البحث في مكونات الخطاب الروائي البنيوية.. و المفاهيم الخاصة بالسرديات البنيوية وهي المستوى الثاني من الدراسة"[4].

وتواصلت جهود يقطين في إطار السردية و مصطلحاتها وظهر كتابه **(انفتاح النص الروائي)** الذي اعتبره امتداد و توسيعا لعمله في **(تحليل الخطاب الروائي)** وهذا التواصل بين الكتابين يندرج ضمن ما يسمى السوسيوسرديات وهو تخصص يسعى إلى توسيع السرديات البنيوية[5] بما يبين أن جهده في تأسيس المصطلح عبر المنهج البنيوي التكويني قد بلغ غايته وحقق

أهدافه المرصودة سلفا.و على الرغم من اعترافه في مقدمة الكتاب بأن هذا العمل- البحث السوسيوسردي- قام به باحثون كثر قبله فإنه يرى أن مارسته هذه تختلف بشكلها عن سابقاتها[6].

ينطلق سعيد يقطين في كتابه **(انفتاح النص الروائي)** من رؤية الناقد و المفكر "بيير زيما" في محاورة مصطلح النص، محاولا إقامة تصور ينتقل من خلاله من الخطاب إلى النص، وعبر هذا التجديد حدد مكونات النص على النحو التالي:1-البناء التفاعلي 2- التفاعل النصي 3- البنيات السوسيونصية وخلص في الأخير إلى أن النص عالم دلالات يتم إنتاجها من خلال النص، يقول:" ينتج الكاتب نصه ضمن بنيات نصية أخرى كبرى أو سوسيونصية بتحول مجريات أو عناصر البنية الاجتماعية. ينتج النص في زمن محدد، ولكنه يُتلقى في أزمنة عديدة وكلما توفر البعد الإنتاجي في النص كانت إمكانيات إنتاجه من خلال المتلقي مفتوحة"[8].

وتجدر الإشارة إلى أن يقطين أفاد من الجهد النقدي لجوليا كريستيفا من خلال بحثها في مسألة التفاعل النصي ، و كذا جهود كل من: لوسيان ديلنباخ، ليلي بيرون موازيه، بلانشو، رولان بارث، ريكاردو و جيرار جينيت..، مما يوحي باستنفاذه لمعظم النظريات التي تهيأت في هذا الموضوع والتي بحثت في مفهوم التناص وأنواعه وقوانينه. وفي حديثه عن مكونات النص رأى أنه يمكن اختزالها في ثلاثة هي [9]:

1- **البناء النصي:**النص بنية دلالية تنتجها ذات

2- **التفاعل النصي** ضمن بنية نصية منتجة

3- **البنيات السوسيونصية** في إطار بنيات ثقافية محددة.

على أنه يلاحظ ميل يقطين إلى تقسيم جيرار جينيت لأنواع التناص وهي:[10]

1-**المناصة:** وتعني البنية النصية التي تشترك وبنية نصية أصلية في مقام و سياق معينين .

2- **التناص:**وهو التضمين.

3-**الميتانصية:** وتأخذ بعدا نقديا محضا في علاقته ببنية نصية طارئة مع بنية نصية هي الأصل.

وقد التزم سعيد يقطين بهذا التصنيف وطبقه على الروايات التي انتخبها للدراسة.وأخذ عن جينيت أيضا تصنيفاته للمادة الحكائية وصيغ سردها التي تتعارض في طرحها البنيوي الوظيفي مع الطرح السوسيولوجي من منطلق رفض جينيت لمصطلح الرؤية و وجهة النظر و تعويضهما بمصطلح التبئير، هذا المصطلح الذي استعمله يقطين أيضا من منظور شكلاني بحت، ثم أورد تصنيفاته من خلال حصر مجاله في المنظور السردي إلى: (التبئير الصفر- التبئير الخاجي- التبئير الداخلي)، فبالنسبة لجينيت يعد المنظور السردي الصيغة الثانية التي تنظم المعلومات الصادرة عن

اختيار وجهة نظر محددة، أو عدم اختيارها وتكمن إحدى الإنجازات الأساسية للنموذج الجيني في: " التمييز الواضح بين مشاكل الصوت و مشاكل الرؤية " [11] و التي تم الخلط بينها و بين أعمال الباحثين السابقين له، لكن جينيت عبر عن رفضها جميعا واقترح مصطلح التبئير.وفي تقييمه لمادة كتابي تحليل الخطاب وانفتاح الخطاب يقول الباحث محمد عزام: " والواقع أن هذا الكتاب بجزأيه .. يعتبر أكمل وأحدث عرض لمكونات الخطاب الروائي المعاصر.وهو جهد ضخم واطلاع واسع على السرديات الغربية، يشكر الباحث عليه."[12].

ونضيف على هذا القول أن طريقة الناقد سعيد يقطين في تقصي و استقصاء المصطلح جديرة بالعناية و الاهتمام فهي طريقة مضبوطة في التقيد بمتطلبات المنهج ، ومحاورة الجدالات بين الرؤى والنظريات المتوزعة في المنهج الواحد، بما يسمح للمتخصص والباحث التدرج وفق سياقات الطروح و تجذبات الآراء في منطقية وحتمية ظلت فيما نقرأ غير مكتملة في دراسات مشابهة أو يقودها الطرح النقدي لا الاستقصائي الذي يحاول فض إشكالات المصطلح دون الالتفات إلى إشكالات المنهج وتصوراته.

وفي منحى تكميلي غير بعيد عن سابقيه ظهر كتاب **الكلام والخبر(مقدمة للسرد العربي)** وهو كتاب رأى فيه ضرورة العودة إلى المعطيات الأساسية التي تساهم في تصور نظري عام للعمل السردي كان قد أهمله أثناء بحثه وانشغاله بالخطاب والنص، فأجل البحث في القصة و المادة الحكائية ، لكنه ارتأى أن المتن السردي العربي القديم فيه من الغنى و التنوع و التعدد ما يتيح معالجة مادة القصة المؤجلة بالصورة الملائمة[13].

وقد وقع اختياره لدراسة المتن القصصي في السردية العربية القديمة على السيرة الشعبية لاعتبارات أبرزها[14]:

1- كون السيرة الشعبية عملا مكتملا.
2- يمتاز نص السيرة بالطول الذي يمكنه من استيعاب الأجناس و الأنواع و الأنماط.
3- تتقاطع السيرة مع العديد من النصوص الحديثة.

وعلى هذه الاعتبارات بنى المقاصد التالية لدراسته[15]:

1-تعميق تصوره السردي الذي سعى إليه في دراساته السابقة.
2-إقامة العلاقة بين النص التراثي ومختلف مستوياته المحيطة به.

إن سعيه لدراسة النص السيري نابع من فرضيتين إحداهما تؤسس لمقولة أن النص السردي العربي يحتفي بخصوصية ما يجب البحث في التصورات المحيطة بها. والثانية تعتبر أن نص

السيرة الشعبية نص ثقافي يستجمع مكونات الواقع .ويتضح من مقدماته هذه تفعيله للمنهج السوسيونصي في معالجة هذا النوع الحكائي[16].ويؤكد الناقد أيضا في مقدمة الكتاب أن دراسته هذه مكملة لكتابه السابق (الرواية و التراث السردي) الذي نشره سنة1992، وكان قد طرح في خاتمته أسئلة مفتوحة تحتاج إلى إجابات ،قدم بعضها في كتابه هذا ويعتزم مواصلة البحث في التراث السردي من خلال بنياته الحكائية و السردية و النصية [17].

أما خاتمة الكتاب فقد وردت بعنوان (تركيب: السرد و السرديات: عود على بدء) وهذا العنوان يفسر عودته في الختام إلى المصطلح السردي و ضبط مفهومه وكأنه يلح على أهمية الدور الذي اضطلع به منذ البدء. وتتضمن الخاتمة المصطلحات التالية[18]:

-**المتن الحكائي:** هو مجموع (الأفعال، الفواعل، الزمان، المكان أو الفضاء)

- **سرديات الخطاب:** عنى بها السردية التي تتميز بها المادة الحكائية[19].

- **الزمان:** وهو الذي بواسطته يعطى زمان خاص لزمان القصة(تخطيب الزمن).

- **الصيغة:** الشخصيات وهي تتكلم(الأفعال الكلامية).

- **التبئير:** موقع الراوي.

- **السرديات النصية:**تهتم بالنص على اعتبار أنه بنية مجردة.

وبالتقاء هذه المكونات تتكامل مختلف مكونات العمل الحكائي السردي النصي [20].

وعلى الرغم من جهده البارز في هذا الكتاب إلا أنه يرى أن الطريق مازال طويلا في مجال البحث في السيرة الشعبية باعتبارها تجل سردي يجب النظر في خصوصياته.

خلاصة:

يتوضح مما سلف ذكره أن المصطلح السردي في النقد المغاربي الحديث يتعامل بفاعلية مع القوانين المنهجية البنيوية التي أوجدته، كما أن العمل حثيث لتوسيع آفاق السردية البنيوية و السيميائية، وتنويع أشكال الدراسة السوسيونصية مع توفر قصدية مقاربة النصوص السردية العربية التي باتت تتكشف بأنواعها و أجناسها أمام النظريات و المناهج النصية المتاحة و المحيَّنة بفعل النشاط الفكري المتواصل في البحث السردي العربي و الغربي.

الهوامش والإحالات:

1-مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي،تر: رضوان ظاظا،عالم المعرفة، الكويت،ع:221،ماي 1997،ص:.13

2-عزام محمد،تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة دراسة في نقد النقد،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003،ص:.170

3-نفسه،ص:.171

4-يقطين سعيد،القراءة والتجريب، دار الثقافة، الرباط، المغرب، ط:1، 1985،ص:.9

5- ينظر: يقطين سعيد،انفتاح النص الروائي- النص السياق-،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:2، 2001، ص:5.

6-ينظر:نفسه، ص:.6

7-نفسه، ص:.6

8-نفسه، ص:.150

9-ينظر: نفسه، ص:

10- ينظر: نفسه، ص:

11- مرتاض عبد المالك،في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد،عالمالمعرفة،الكويت، ع:،1993،ص:.295

12- عزام محمد،تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة،ص:.190

13- ينظر: يقطين سعيد،الكلام و الخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 1997، ص:.7

14- ينظر: نفسه، ص:.7

15- ينظر: نفسه، ص:.8

16- ينظر: نفسه، ص:.9

17- نفسه، ص:10.

18- نفسه، ص:.223

19- نفسه، ص:224.

20- ينظر: نفسه، ص:225.